

هاني عوّاد *

الفكر الاتصالي: من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة

الكتاب : الفكر الاتصالي: من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة
الكاتب : بيرنار ميج
ترجمة : أحمد القصور
تاريخ النشر : ٢٠١١
الناشر : دار توبقال للنشر - الدار البيضاء
عدد الصفحات : ١٠١



أولها النموذج السيبرنطقي، وثانيها النموذج التجريبي - الوظيفي، وثالثها المنهج البنيوي- اللساني. ومع أن المؤلف نفسه هو الذي اقترح هذا التصنيف، فهو لا يلتزم بأصول التمييز التي خطها بنفسه، فكلّ هذه التيارات التي سادت عقديّ الخمسينيات والستينيات وُلدت بنوية، وتبحث عن «قوانين تحكم الكلّ انطلاقاً من عناصره، ومن أنواع التعارض المعهودة (شكل / عمق)» (ص ١٧ بتصرّف)؛ فهي تعابُر آثار الاتصال كما يعاين الطبيب مريضه، وباستثناء المنهج اللسانيّ

يرتكز الهمّ الأساس لهذا الكتاب على محاولة لم تشمل العدة المنهجية التي تراكمت على مدى ما يقارب الستة عقود لمناقشة موضوع الاتصال- الإعلام، أو بالأحرى التفتيش عن «نظرية الإعلام» في التراث المعرفي الذي أنتج حول وسائل الإعلام منذ انتقلت هذه لتأخذ مركزاً أساساً في إعادة إنتاج البنى السياسية والاجتماعية؛ أي منذ الحرب العالمية الثانية.

يفتح ميج دراسته بفصل يتناول ما يصفه بـ«التيارات المؤسسة» في الفكر الاتصالي،

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وسكرتير تحرير دورية «عمران» للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

الأساسية في الاتصال ليست هي الخطابات، وإنما الوسائط ذاتها» (ص ٣٧)، وهو ما يعني فصل الوسيط من حيث هو أداة عن الرسالة الموجهة. وما فعله ماكلوهان ليس أكثر من سحب أحد مناهج النقد الأدبي الحديثة ليطمّ التعامل مع الميديا على أنها «قصيدة»، لا يمكن فهمها إلا من خلال نظامها الداخلي الناظم لمخرجاتها^(١)، ولكن حتى هذه الأخيرة تعاني، كما يشير المؤلف، شبه انعدام الاختبارات المنهجية التي تثبت فعاليتها للتفسير، وغموض الموضوع الذي يعالجه (ص ٧٧).

ومع ذلك، يغامر المؤلف في الفصلين الثاني والثالث باعتبار مباحث اجتماعية وأثروبولوجية امتداداً للمؤلفات الكلاسيكية بشأن نظرية الإعلام-الاتصال^(٢)، فيذكر في الفصل الثاني تيار الاقتصاد السياسي الذي يهدف في «الأساس إلى توضيح الوظيفة التي يقوم بها الاتصال من أجل تلبية حاجات الرأسمال» (ص ٤١)، والمدرسة الأثروبولوجية في تحليل التواصل، ثم مدارس العلوم الاجتماعية المختلفة، والتيار الثقافي، مع أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا معنيين بتشييد نظريات عامة حول الإعلام، فالدراسات الاجتماعية والإنسانية كانت دائمة الانشغال بالتواصل بين البشر في سياق محاولاتها لفهم المجتمع.

يبدو مبيح في فصول الكتاب الثلاثة منخرطاً بشدة في تقاليد المدرسة الفرنسية المحدثه، حيث الإغراق في النظرية والمنهج يفوق في أهميته الحديث عن الظاهرة المدروسة. لذلك، ينطلق المؤلف من أرضية تسلّم بوجود نظرية إعلام، ولا يتساءل عما إذا كان هنالك قبل ذلك نظرية للإعلام (أو نظرية في الإعلام)، فالإعلام مثل غيره هو ظاهرة اجتماعية تعبر في النهاية عن مجرى علاقات السلطة داخل مجتمع، وصراع القوى على فوائض الإنتاج المادية والرمزية.

إن أهم ما يميّز هذا العمل، هو إقراره في الفصل

الذي انبثق من أعمال ليفي ستراوس وغيره (حيث لا يوضح المؤلف علاقته الخصوصية بموضوع الإعلام)، فإن التيار المؤسس والمهتم بمنتجات وسائل الاتصال كان أداتياً، يروم البحث عن آثار الإعلام في الذوات الاجتماعية (مرسل - وسيط - متلق)، ثم يقدم تغذية راجعة إلى علاقات السلطة بوصفها المستحوذ على الأجهزة الإعلامية، وذلك منطلقاً من سلبية المتلقي. هكذا يتم بوساطة سلطة الميديا «الدفع بالأفراد المستعدين بشكل قبليّ للتعبير عن آراء الأقلية أو عن آراء غير شعبية إلى الإحجام عن القيام بذلك مخافة عزلهم اجتماعياً» (ص ٢٨).

لذلك، عرض المؤلف مساهمات التيار النقدي الذي قاده تلاميذ مدرسة فرانكفورت التي ساهمت، في رأينا، في اضمحلال الحديث عن الاتصال بوصفه حقلاً علمياً منفرداً بحد ذاته. هكذا برز اكتشاف جوزيف كلابر (J. Clapper) وغيره؛ فالاتصال الجماهيري ليس سبباً ضرورياً وكافياً للتأثير في جمهور الوسائط، فهو يشغل بالأحرى بواسطة تضايف مجموعة من العوامل الوسيطة؛ فالرسالة الإعلامية تمرّ بمراحل من التصفية من خلال اختيارات المتلقي، والمجموعات التي يعيش فيها، والاتصال بين الأفراد و«موجهي الرأي» (ص ٢٧)، كما هو الشأن بالنسبة إلى «الخيرات المعروضة للاستهلاك، حيث يُترك نوع من المبادرة للمستعملين - المستهلكين ما إن يكون العرض وافراً» (ص ٢٩). وباختصار، فإن الثقافة الجماهيرية هي «نسق خاص يوجد في علاقة مع المجتمع والتاريخ، وليس كأثر للوسائط الجماهيرية» (ص ٣٤).

إذاً، ما يمكن استنتاجه من الفصل الأول هو موت فكرة تحويل الإعلام إلى حقل علمي منفرد منذ ولادتها، وانحصار نظرياتها التي لم يبق منها سوى أطروحة مارشال ماكلوهان، حيث «إن الواقعة

التي تروم البحث عن استقلالية حقل معرفي معيّن عن التراكم المعرفي الذي أنتجته العلوم الاجتماعية والإنسانية. وكما أشار ميبج في الفصل الثالث، فإن تطوّر البنى الاجتماعية جاء مخالفاً للتوقعات التي أعلنتها الدراسات الإعلامية منذ عقود (ص ٨٤)، فالمديا في نهاية المطاف هي أسيرة «الراهنّي»، والمعلومة التي تشكّل رصيد الوسيلة الإعلامية هي «آنيّة»، بينما تتحكم في البنى الاجتماعية شروط اجتماعية ضاربة في التاريخ.

الهوامش

1 Richard Wasson, Marshall McLuhan and the Politics of Modernism, *The Massachusetts Review*, Vol. 13, No. 4 (Autumn, 1972), (567-580), p.573.

٢ يصّر بيرنار ميبج على مدار كتابه على وضع علامة الشرطة (-) بين «الإعلام» و«الاتصال»، مع أن الاتصال هو موضوع شديد العمومية اهتمّ به كثير من الحقول المعرفية، أكانت سوسولوجية أم أنثروبولوجية أم حتى لسانية بحتة.

الثالث التناقض الأهم الذي وقع فيه أغلب المساهمين بنظريات الإعلام الحديثة (ابتداءً من ماكلوهان وانتهاءً بريجيس دوبريه)، التي ميّزت بين نمطين من الإنتاج، الأول هو الرأسمالي الصناعي، والثاني هو الإعلامي (والموصوف أحياناً بما بعد الصناعي). ومع ذلك، فهي لا تهتمّ إلا بالنمط الثاني، ولا تبحث في التفكير في التمثيل بين الواحد والآخر، فلا يصبح مفهومًا «كيف يمكن لتشغيل التقنيات أن يكون مفصلاً عن نمط الإنتاج الذي يعبثها، وموجّهاً نحو استعمالات متميزة» (ص ٨٥)، ونحن نذهب أبعد من ذلك لنقول إنه لا يوجد في الأصل نمط إنتاج إعلامي؛ بل يوجد أجهزة إعلامية فاعلة ومنفصلة بظرف كل مجتمع من المجتمعات، وخلف هذه الأجهزة قوى اجتماعية مستفيدة من اقتصاد الخدمات الذي هو بالأصل نتوء من نتوءات اقتصاد الرأسمالية.

هذا الكتاب إذاً هو مثال مهم لارتباك المحاولات

إقرأ في هذا

العدد

محور العدد:

ممارسة أنظمة المراقبة في الوطن العربي (٢)

- دور معاهدات السلم والتجارة في التحكم في المجال التجاري ومراقبة التجار في الحوض الغربي للمتوسط في العصر الوسيط
- السياسات الحيوية الإسرائيلية: الاغلاق والتأريض والتحكم في الأراضي الفلسطينية المحتلة
- الاحتلال الرقمي الإسرائيلي لغزة
- الإحصاء، والبحث الاجتماعي في الأرض المحتلة ١٩٦٧: الأثر الاستعماري وتشظية المجتمع الفلسطيني
- السياسي والسوسولوجي في الغطاء العربي: صراع الرقابة وتحولات العلاقة

دراسات

مناقشات

مراجعات

